الاعتراف

للقصصي الفرنسي جي دي موپاسان
بقلم الأديب شكري محمد عياد

أقبلت قرية «فزيير لوربتيل» عن بكرة أبيها تشيع جنازة السيد «بادون ليرمنتيه» وتشهد رمسه. وانطبعت فى كل ذهن كلمات نائب الولاية فى تأبينه:

«إن أقل ما يقال فيه إنه رجل شريف!»

لقد كان رجلاً شريفاً بكل ماقدم من عمل مجيد، بأقواله ومثله، بسلوكه ومعاملاته، بسيماه وشارته، بهيئة لحيته ووضع قبعته. ما قال يوماً كلمة إلا ضمنها حكمة، ولا جاد يوماً بصدقة إلا شفعها بنصيحة، ولا بسط يوماً يده إلا كان كمن يزف حسنة

ولقد خلف ولدين: ذكراً وأنثى. أما الابن فقد كان على وشك أن يعين قائداً فى الجيش؛ وكانت الابنة من عقائل فزيير، فقد كانت زوجة للمسجل السيد بوارل دلا فولت

وكانا لموت أبيهما آسيين لا يتعزيان، فقد كانا يصدقانه الحب ويخلصان له الولاء

وما انتهت مراسم الدفن حتى آبا إلى المنزل، واختلوا ثلاثتهم: الابن والابنة وزوجها، ففضوا الوصية التى كان عليهم أن يتلوها وحدهم بعد أن يقر فى الأرض تابوت الفقيد. وكانت على الظروف إشارة تبين هذه الرغبة، وتحتم هذا الشرط

كان السيد بوارل دلافولت هو الذى فض الغلاف بطبيعة كونه مسجلاً ألف مثل هذه الأحوال فهيأ على عينيه منظاره، وقرأ فى صوت أجش جبل على تفصيل العقود:

* * *

يا ابنى، يا ابنى العزيزين، إنى لا أستطيع أن أنام قريراً فى ضجعتى الأبدية ما لم أبعث إليكما من رجام القبر باعتراف، باعتراف بجريمة مزقت حياتى بالندم. أجل، لقد اقترفت جرماً، جرماً مخيفاً شنيعاً

كنت إذذاك فى السادسة والعشرين من عمرى، أمارس المحاماة فى باريس، وأعيش فى تلك المدينة عيشة الشبان الغرباء، بغير معارف ولا أصدقاء ولا آباء.

فاتخذت خليلة. وكم من الناس من يثورون لهذا اللفظ وحده: «خليلة»! ولكن بعض الخلق لا يستطيع أن يعيش فريداً، وأنا من بين هؤلاء؛ فان الوحدة لتملأنى باستيحاش مخيف، وحدة المأوى، قرب المصطلى، فى المساء. حينئذ يخيل إلى أنى أعيش على ظهر الأرض وحيداً، تحدق بى أخطار مبهمة، وتكتنفنى أشياء مجهولة ومخيفة. حينئذ يخيل إلىّ أن الحاجز الذى يفصلنى عن جارى، جارى الذى لا أعرفه، يبعدنى عنه بعد النجوم التى ألمحها من نافذتى؟ فتمرونى حمى من الجزع والخوف، ويرعبنى صمت الجدران. ما أبلغ الحزن وما أعمق الصمت فى غرفة الرجل الوحيد! أنت هناك لا يأخذك الرعب إذا رنق الصمت قدر ما يحتويك إذا اختلج ستر أو ترقست قطعة من أثاث. لأنك فى مأواك

الكئيب لا تنتظر صوتاً ولا تتوقع نأمة

وكم من مرة أرعبني السكون الأخرس فطفقت أتكلم، أفوه بألفاظ لا رابطة بينها ولا معنى لها لأحدث صوتاً. حينئذ يلوح لي صوتي من الغرابة بحيث أخافه هو أيضاً. وهل أبعث على الرعب من أن تتكلم وحيدا في منزل خال؟ إن صوتك ليلوح لك حينئذ كأنه صوت سواك، صوت مجهول يتكلم لغير سبب ولغير أحد، ويشق جوف الهواء لغير أذن تسمعه. ذلك بأنا نعرف قبل التلفظ ما نوشك أن نقول، فاذا أرن الصوت الحزين في الصمت الجاثم لم يعد إلا شبيه الصدى، صدى عجيب لخفت ضئيل همس به الذهن الكليل.

اتخذت خليلة: فتاة ككل أولئك الفتيات اللاتي يمشن في باريس من عمل لا يقيتهن. كانت حلوة ناعمة سمحة بسيطة؛ وكان أبواها يستوطنان پواس، فكانت تذهب إليهما من حين إلى حين فتمضي بينهما بضعة أيام.

قضيت معها حولا في عشرة هادئة، وأنا ثابت العزم على هجرها متى وجدت الفتاة التي أرتضيها زوجة. وكنت أهبها أجرها قدراً صغيراً من المال، فقد جرى العرف في مجتمعنا على أن الحب يجب أن يشرى من المحبوب بالمال إن كان فقيراً وبالهدايا إن كان غنيا.

ولكن هاهي ذي تنبئني ذات يوم أنها حبلى. فذعرت ولمحت في لحظة كارثة وجودي. وبدا لي الغل الذي سوف أرسف فيه دائماً: في أسرتي المستقبلة، في شيخوختي، حتى أموت. غل المرأة التي ارتبطت بي بوليد، غل الطفل الذي يجب أن ينشأ ويحفظ دون أن يعرفني، ودون أن يعرفه الناس. ذهلت لهذا الخبر وامتلكتني فكرة مبهمة ما كنت لأجتليها، ولكني أحسستها في قلبي على أهبة للبروز، كأولئك القوم المتوارين وراء السدل ينتظرون إشارة بالظهور. كانت تدور في أعماق تفكيري رغبة قاتلة: لو حدث حادث! إنه كثيراً ما يقع لتلك الكائنات الصغيرة، التي تموت قبل أن تولد!

أوه! ما كنت أريد أن تموت عشيقتي، فقد كنت أحبها حقاً تلك الفتاة المسكينة؟ ولكن لعلي كنت أؤمل أن يموت الآخر من قبل أن أراه

بيد أنه برز إلى الوجود يرهقنا بالنفقات ويطالبنا بالعناية؛ لقد كان يشبه كل الأطفال وما كنت لأحبه. والآباء لا يحبون إلا متأخرين فليس لهم مثل ما للأمهات من حنان فطري وحدب مكتسب وحب سريع. لكن يستيقظ عطفهم شيئاً فشيئا، ويرتبط قلبهم بتلك الوشيجة التي تؤلف بين المتعايشين وتزيد على الأيام توثقاً وإصراراً.

وأدبر حول جديد فاذا أنا أفر من مسكني الصغير وقد انتثرت فيه ثياب ولفائف وجوارب كالقفافيز، وألف شيء من كل نوع ملقى في كل مكان: على قطعة من أثاث أو على ذراع من مقعد. ولقد كنت أفر حتى لا أسمع صياحه، فقد كان يصيح دائماً ويصرخ بغير انقطاع: إن بدلنا مكانه أو نظفنا جسده، أو لمسناه أو أرقدناه أو حملناه.

وعقدت مع بعض الأسرات أواصر المعرفة، فلقيت في أحد الأبهاء تلك التي غدت أمكما، فشغفت بها حباً واستيقظت في نفسي رغبة أن أتزوج منها.

وعينت في القضاء فطلبت يدها، وأجبت إلى ما طلبت.

وأمسيت من أمري في رهق شديد. أأبقي بتلك التي أعبدها ولى ذلك الولد، أم أصرح بالحق فأفقدها وأفقد السعادة والمستقبل وكل شيء؟ لقد كان أبواها من الصارمين المتزمتين ولو علما الحقيقة ما أسلماها إلى.

قضيت شهراً في أتون من الهم والألم، تموج في ذهني آلاف من الأفكار المخيفة، فتثير في نفسي البغض والعداء نحو ابني، نحو هذه القطعة الوجلة من اللحم الحي، نحو هذه النطفة التي تسد طريقي، وتسلمني إلى وجود لا رجاء فيه، ولا أمنية تملأ الشباب حياة وجمالا.

ولكن ها هي ذي خليلتي يعتريها المرض فأبقى والطفل وحدي.

كنا في ديسمبر، وكان الطقس قراً شديداً. يا لها من ليلة! لقد بارحتني خليلتي فتمشيت في قاعتي الضيقة وحدي، ودلفت إلى غرفة الصغير النائم.

جلست على مقعد إلى المصطلى، وكانت الريح تعصف فيقرقع لها الزجاج، وكنت أبصر النجوم من نافذتي تلمع لمعها الحاد في ليالي الصقيع.

إذ ذاك صعد إلى رأسي الكره الذي احتواني شهراً، وما كدت أجلس ساكناً حتى هبط على ونفذ إلى وتأكل قلبي. وإذا هو في رأسي كالفكرة الراسخة ينخر فيه نخر السرطان في اللحم المريض. كان يخيل إلى أنه يدب مني في الرأس والقلب والجسد، ويمس مني الأطراف والشغاف والمسامع، ويبتلعني كأنه الوحش الجائع النهوم. فأردت أن أطرده، أن أذوده، وبأن أفتح ذهني لأفكار بعيدة وآمال جديدة، كما تفتح النافذة لنسيم الصباح البكر فيزيح هواء الليل المسمم، ولكني لم أستطع أن أبعده عن ذهني لحظة واحدة. لست أدري كيف أصف هذا العذاب. لقد كان يقضم روحي، فأحس لجذ أسنانه ألماً هائلا، ألماً حقيقياً يلهب الجسد والروح جميعاً.

لقد تمنيت محبي، فكيف أخلص من هذا الكلام؟ كيف أرد التهمة ثم أثبت الاعتراف؟

لقد كنت أحب تلك التي غدت أملي حب الجنون. وكنت أقول إن الحجر الكئود سوف يسد طريقها أيضاً، وسوف يملأ قلبها شجى ولوعة

وامتلكني غضب مخيف، غضب سد حنجرتي ودفعني نحو الجنون ... نحو الجنون ...! يقيناً لقد كنت مجنوناً ذاك المساء البعيد؟

كان الصغير ينام. فقمت ونظرت إليه وهو نائم. إنه هو ذلك السقط، تلك الدودة، ذلك اللاشيء الذي يلزمني شقاء مبرماً لا راجع!

كان ينام مفتوح الفم، مدرجاً في لفائفه، ناعماً في مهده، قرب فراشي الذي لم أكن أنا أستطيع عليه نوماً!

كيف فعلت ما فعلت؟ هل أعلم أنا؟ أي قوة دفعتني؟ أي شيطان استبطنني؟ لقد كانت الجريمة تجتذبني بغير وعي مني. لست أذكر إلا أن قلبي كان يدق! وكان في رأسي صخب عجيب كأنما غادره كل تفكير وكل هدوء. كنت في ساعة من ساعات الذهول حيث لا يقدر المرء ما يرى، ولا يدرى ما يفعل ولا يقرر ما يريد

رفعت الأغطية التي كانت تستر جسد ولدي،

وألفيتها تحت المهد، فرأيته عارياً تماماً. ولم يستيقظ فذهبت إلى النافذة فى هدوء وفتحتها

واندفعت هبة من الهواء كأنها المجرم الأثيم، نكصت لبردها، وخفق لعصفها نور الشمعتين. وظللت بجوار النافذة قائماً، لا أجسر على الارتداد حتى لا أرى ما يجرى خلفى، وأنا أحس على يدى وخدى وجبينى برد الريح الميتة لا تفتأ عاكفة على المحبوب. وبقيت كذلك طويلا

لم أفكر قط ولم أتدبر شيئاً، حتى سمعت سعلة صغيرة أرسلت فى رعدة بلغت منبت الشعر أحسها اللحظة مرة أخرى، وفى حركة عنيفة مجنونة أوصدت مصراعى النافذة، ثم عدت فعدوت إلى المهد

كان ما يزال نائما، مفتوح الفم، عارياً تماماً. فلمست قدميه فاذا هما باردتان كالثلج؛ فرددت عليهما الغطاء

ورق قلبى فجأة وانحطم، وامتلأ حناناً وعطفاً وحبا لذلك المخلوق البرىء المسكين الذى أردت قتله فقبلته طويلا فى شعره الرقيق، وعدت فجلست إلى المصطلى

تدبرت فى ذهول ورعب ما فعلت. وساءلت نفسى من أين تعصف بالانسان هذه الفكر التى يفقد معها كل تقدير للأشياء وكل سلطان على نفسه، ويعمل فى مثل نشوة السكران أو ذهول الأخرق غير عالم ما يفعل ولا حاسب حساباً لما سيكون، فكأنه زورق وسط إعصار شديد

سعل الطفل ثانية، وأحسست كأن قلبى يتمزق.

آه لو مات! رباه! رباه! ومن أعدو أنا؟!

نهضت كي أراه، وحنوت عليه وفى يدى شمعة رأيته يتنفس فى هدوء فطأنت نفسى، بيد أنه سعل مرة ثالثة فأحسست مثل وقع الصاعقة، ونكصت على عقبى كمن رأى شيئاً أرعبه فسقطت الشمعة من يدي

ولما التقطتها واستويت واقفاً إذا بخدى مبللان بالعرق، بذلك العرق الذى تجهه النفس ساعة ثورتها لاهباً مثلجاً فى وقت معاً، وكأنما تنفست بين العظم والمخاخ نفحة من ذلك العذاب الغليظ، القارس كالثلج، اللافح كالنار

ظللت حتى الصباح عاطفاً على ولدى، أسرى عن نفسى الهم كلما رأيته هدأ وصفا، ويمزقنى الألم كلما انبعثت من فمه الصغير سعلة خافتة

واستيقظ وقد احمرت عيناه، واضطرب حلقه وبان عليه الألم

وعند ما أقبلت خادمي أرسلت فى طلب طبيب، فجاء بعد ساعة، وقال بعد أن فحص الصغير:

— ألم يصبه برد؟

فطفقت أرتعد كارتعاد الشيوخ الطاعنين وتمتمت:

— كلا، لا أظن

فأجاب:

— أنا لا أعرف شيئاً غير هذا. سأعود هذا المساء

وعاد فى المساء. وكان ولدى قد قضى جل النهار مثبتاً لا يفيق، ساعلا بين الحين والحين

ودامت تلك الحال عشرة أيام، ولست بقادر على أن أصف ما قاسيت فى تلك الساعات الغلاظ التى

تفصل بين كل صباح ومساء ، وكل مساء وصباح لقد مات ...

ومنذ تلك اللحظة لم أعرف ساعة واحدة تعفيني من شناعة هذا الجرم ، أو تحميني من لهيب هذه الذكرى التي تقد الحشا وترمض الجوانح ، وتدور في النفس كوحش عميت ، حبيس في أعماق هذه الروح

آه ! لو استطعت أن أغدو مجنوناً !

* * *

خلع السيد بوارل دلافولت منظاره في حركة مألوفة لديه عند فراغه من قراءة عقد ، وتبادل الورثة الثلاثة النظرات دون أن ينبسوا بكلمة ، فقد كانوا شاحبين صامتين لا يتحركون

وبعد دقيقة قال المسجل :

— يجب أن نعدم هذه

وخفض الآخران رأسيهما إشارة الاقرار ، فأوقد السيد شمعة ، وفي عناية واحتراس فصل الأوراق الحاوية الاعتراف المخوف عن تلك الشاملة توزيع المال ، ثم قدمها إلى النار وقذفها في المدخنة وراقبوا الأوراق البيضاء وهي تحترق ، فلم تعد بعد قليل غير كومة صغيرة سوداء . ورأت الابنة أجزاء من الورق لا تزال بيضاء تحمل حروفاً قليلة فحطمتها بضربات صغيرة من كعب حذائها وخلطتها بالرماد القديم

وبقي ثلاثتهم زمناً يشهدون هذا الرماد ، كأنما خشوا أن يفر من المدخنة السر المحرق

شكري محمد عياد

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً